تأثير الترجمة في صناعة المصطلح النقدي العربي القديم

عمرو زاير

أستاذ محاضر أ

جامعة البليدة 2

0658122928

تاريخ الاستلام:2019/05/23 تاريخ القبول:2019/12/13

ملخّص

عرف النقد العربي خلال القرن الرابع الهجري مجموعة من المصادر النقدية، منها عيار الشعر "لابن طباطبا "و"نقد الشعر "لقدامة بن جعفر، و"الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري" للآمدي و"الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي الجرجاني، وقد غطَّت الفترة الممتدة من بداية القرن الرابع إلى نهايته، وتُعتبر هذه المصادر الأربعة خزانا هاما لمجموعة من المصطلحات، التي دارت على ألسنة النقاد الذين استعملوها في مفاضلاتهم بين الشعراء، وفي أحكامهم النقدية، وأصبحت من المصطلحات الناجزة التي استقر مفهومها نسبيا.

الكلمات المفتاحية: الترجمة، النقد القديم، الشعر، المصطلح النقدي القديم.

ملخص بالأجنبية:

During the fourth century, the Arab Criticism defined a number of nakd " of Ibn Tabataba, the"iyar echiir"Criticism books, including of Qadamahah ibn Jaafar, the balance between Abi Tammam "echier and al-Bahturi's poetry, and al-Mutanabi's mediation with his

adversaries. The period from the beginning of the fourth century to the end. These four books are important repositories of a set of terms that have been used by critics in their trade-offs among poets and in their critics judgments.

words: translation, ancient criticism, poetry, old criticism Key term.

مقدمة

تَدَرَّج النقد العربي إلى أن أصبح في غاية النضج في نهاية القرن الرابع الهجري، وساعد على تطوره دخول عامل جديد عليه، يتمثل في الفلسفة اليونانية بفعل الاحتكاك المباشر أو عن طريق الترجمة، فبدا في حلة جديدة يظهر فيها تأثره بالفكر اليوناني ونزعته العقلية في تفسيره للظواهر، فجاء أكثر نضجا، كما شهد المصطلح النقدي تبعا لذلك تطورا ملحوظا، خاصة عند ابن طباطبا العلوي وقدامة بن جعفر، مما أثرى معجم البلاغة والنقد بالكثير من المصطلحات، التي ظهر فيها الطابع الأرسطي، ووصلت المصطلحات في أواخر القرن الرابع الهجري إلى قمّة التطور بفعل الترجمة عن الأمم الأخرى، فما هو نصيب الترجمة في صناعة المصطلح النقدي العربي القديم؟

1- بداية الاهتمام بالمصطلح عند العرب

بدأ الاهتمام بالمصطلح منذ وقت مبكر عند النقاد العرب، منهم قدامة بن جعفر الذي يقول" فإني لما كنت آخذا في استنباط معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليها، احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء اخترعتها، وقد فعلت ذلك والأسماء لا منازعة فيها ... "(1) فوضع المصطلح مباح للعلماء ولكل من احتاج إلى تسمية شيء ليعرفه به، ويشير قدامة إلى الوسائل التي استعان بها لوضع المصطلح، وهي الوضع والاختراع لأسماء لم يكن لها مسميات من قبل، وهو يدعو بذلك إلى الحرية في وضع المصطلح، فلا مشاحة في المصطلح. ولم يكن قدامة وحده مخترعاً للأسماء أو المصطلحات، وإنما سار على هذا النهج البلاغيون والنقاد والعروضيون، الذين اهتموا بالقضية الاصطلاحية لإقامة العلوم اللغوية خاصة، بعد أن أدركوا أن المصطلح أداة هامة

لفهم العلوم، وقد تم وضعه عندهم إما باختراع أسماء لما لم يكن معروفاً كما فعل النحويون، والعروضيون، وإما إطلاق الألفاظ القديمة للدلالة على المعاني الجديدة على سبيل التشبيه والمجاز، كما في العلوم الشرعية مما استجد بعد الإسلام، وإما عن طريق التعريب بنقل الألفاظ الأجنبية إلى العربية، فبرزت مصطلحات علوم العربية كالنحو مع سيبويه، مصطلحات البديع مع ابن المعتز، وغيرها من المصطلحات التي تميَّز بها الدرس اللغوي التي يوظفها في مجالات نشاطه، إذ أن كل علم يصطنع لنفسه من اللغة معجما خاصا به يؤدي إلى تَميُّزه على غيره من العلوم، فالمصطلح أداة البحوث العلمية، ولا غنى عنه في كل دراسة فهو "... ييسر البحث، ويرسم المعالم رسما مختصرا"(2)، وقد زاد اهتمام العرب بالمصطلح بعد حركة الترجمة التي عرفوها قديما، والتي تمّ من خلالها دخول كم هائل من المصطلحات الأجنبية إلى اللغة العربية فتوجه العلماء إلى ترجمتها.

لقد كان نشاط وضع المصطلح في الحضارة العربية الإسلامية كبيرا، تمثّله المؤلفات التي جسدت حركة الاصطلاح العربي، منها كتاب "مفاتيح العلوم" للخوارزمي، و"التعريفات" للشريف الجرجاني، و"الكليات" لأبي البقاء الكفوي، و"كشاف اصطلاحات الفنون" للتهانوي وغيرها من الكتب، هذا من حيث الاهتمام بالتأليف حول المصطلح، أما من حيث إنمائه فإن العلماء العرب قد لجؤوا إلى وسائل كالاشتقاق، والمجاز، والنحت، والترجمة، والتعريب، وهي الوسائل التي رجعوا إليها عندما وضعوا ألفاظهم، وهي الوسائل عينها التي تبنَّاها النقاد من أجل إثراء المصطلح النقدي.

2- المصطلح النقدي في مؤلفات النقد الأدبي عند العرب

أدت حركة الترجمة خاصة في العصر العباسي، إلى بروز حركة تأليف واسعة في النقد الأدبي، فظهرت مؤلفات منها: قواعد الشعر لثعلب، فحولة الشعراء للأصمعي، طبقات فحول الشعراء لابن سلام، الشعر والشعراء لابن قتيبة، الموشح للمرزباني وغيرها، لكن لا يمكن اعتبارها مؤلفات متخصصة في النقد بسبب الطابع العام الذي ظهرت به، إلى غاية ظهور المؤلفات النقدية البلاغية التي اهتمت بالتنظير للنقد، وتندرج تحت هذا القسم الكتب التي اهتم فيها مؤلفوها بنظرية الشعر، على وجه الخصوص في القرن الرابع الهجري، الذي شهد مجموعة من الأعمال النقدية أهمها كتاب "عيار الشعر" لابن طباطبا

الذي يمتزج فيه ذوق الناقد الشاعر بالتنظير للشعر، أما الثاني فهو "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر الذي ذكر فيه فنوناً بلاغية كثيرة، وطغى على كتابه الطابع المنطقي في فكره ومصطلحاته، وغلبة المنطق على تفسيره وتقسيمه للشعر نظرا لتأثر صاحبه بآراء فلاسفة اليونان، وقد تعرض الكتاب من أجل ذلك لكثير من الهجوم من طرف النقاد الذين جاؤوا بعده خاصة الآمدي. وقد فتح هاذان الكتابان عهدا جديدا في التأليف النظري في النقد العربي.

أما كتب النقد التطبيقي التي ألفت في هذا القرن فأهمها كتاب" الموازنة بين الطائيين" للآمدي، والموازنة منهج قديم في المفاضلة بين الشعراء، ولكنه عند الآمدي جاء مُعَلَلا يحكمه الذوق الفني، وهو يفضل كل ما جرت به عادة العرب في قول الشعر، ومن هذا الموقف كانت مخاصماته للشعراء المحدثين، أما الكتاب الرابع فهو"الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي عبد العزيز الجرجاني، الذي يبدو فيه عارفا بالشعر وعيوبه، متخذا طريق المقايسات التي اعتمد عليها في وساطته، كمبدأ للدفاع عن المتنبي.

تدور الكتب النقدية الأربعة في معظمها حول الشعر، إذ انصرف مؤلفوها إلى دراسته، وكانت أوَّل محاولاتهم تنصب في وضع حد للشعر باعتباره الجنس الأدبي الأهم الذي كان يمثل ثقافة تلك العصور، وقد انطلق البعض في تعريفه من ثقافته العربية الأصيلة، ولجأ البعض الآخر إلى ثقافة أجنبية دخيلة، تأثر بها بفعل الاحتكاك بشعوب أخرى، مباشرة أو عن طريق الترجمة، ووضعوا بعدها أسساً منهجية في نقد الشعر وبلاغته، وقد قام النقاد والبلاغيون العرب الأوائل بتحديد مفهوم الشعر انطلاقا من عناصره الأربعة و هي: اللفظ و المعنى والوزن والقافية، ووضعوا له تعريفا على أساس هذه العناصر. ويكاد الإجماع حول جانبه الإيقاعي المتمثل في الوزن والقافية يكون عاما بين النقاد، لأن الكلام لا يكون شعرا إلا بهما، ولم يثر هذا الجانب إشكالا لدى النقاد، كما أثاره عنصر اللفظ والمعنى حول أيهما أجدر بالفضل والتقدم، أما الخيال كعنصر هام من عناصر العمل الشعري، إذ أنه يتيح للشاعر القدرة على رؤية الأشياء بشكل يصل إلى عمق الأشياء وكُنهها، إلا أنه لم يحظ باهتمام النقاد، إلا بعد ظهوره كمبحث من مباحث النفس عند الفلاسفة المسلمين المتأثرين بالفلسفة اليونانية، فالنقد العربي القديم لم يحفل بالقوى النفسية وبقي

اهتمامه بالخيال ضعيفا، لأن العرب عاشوا في وسط لا يتمتع بطبيعة تحرك فيهم هذه القوة النفسية، فقد ظل الخيال يُدرس عندهم من خلال الصورة الشعرية الجزئية، المرتبطة بعلم البيان فقط في إطار التشبيه والاستعارة والمجاز، التي كانت المنفذ الوحيد عند الشاعر لتشكيل الصورة الشعرية.

3- حركة المصطلح وثباته في التراث

يعطي اتفاق الجماعة المخصوصة، التي تواضعت على تحديد مفاهيم المصطلحات في أي مجال علمي، قوتها الاصطلاحية دون أن يلغي حركية المصطلح، إذ يتعرض مفهومه خلال سيرورته للتوسيع أو للتضييق، إنَّ ولادة المصطلح ونموه وزواله من الاستعمال، ثم ظهور مصطلحات أخرى لكل ما يستجد، يؤكد رفض مفهوم المصطلح للثبات، فهو في تطور مستمر بقدر تطور الحاجة إليه التي لا تتوقف، فكلما ظهرَ الجديد اصطلح على تسميته، فعملية الاصطلاح والمواضعة لا تنتهي عند حدّ، لأن المعرفة الإنسانية لا تتوقف، وهنا تتجلى حركية المصطلح على مستويين: مستوى خارجي، ومستوى داخلي:

أ- الحركية الخارجية للمصطلح النقدي: وتظهر في المراحل التي مرّ بها في تطوره منذ وضعه ثم نموه واستقراره ودخوله مجال الاستعمال، وكذا في انتقال المصطلح النقدي عبر التاريخ من ناقد إلى آخر، ومساهمة كل ناقد في إثرائه دلاليا إلى أن يكتمل في النهاية مفهومه عند آخر ناقد تناوله.

ب - الحركية الداخلية للمصطلح النقدي: وتتعلق بالمصطلح في حد ذاته، وتحيل على التطور الدلالي للمصطلح النقدي، الذي قد يتوسع مفهومه في مرحلة ما من مراحل تطوره، فبعد أن كان مقتصرا على معنى معين، اتسع ليشمل مفاهيم أخرى، فيفقد بذلك صرامته الاصطلاحية، ويتخلى عنه الاستعمال لعدم استقراره، لأنه لم يعد يمتلك مقومات المصطلح الناجز، فطابعه المتغير باستمرار صَعَّب عملية ضبط مفهومه. أو قد يضيق مفهوم المصطلح بعد أن كان واسعا، فيصبح بذلك في أعلى مستوياته الاصطلاحية، ويكرسه الاستعمال فيصبح أكثر دورانا على الألسنة بمفهوم محدد، كمصطلح الأدب

الذي كان يعني الدعوة إلى الطعام، ثم الدعوة إلى مكارم الأخلاق، وأخيرا اقتصر مفهومه على الشعر والنثر، وفي هذه الحالة يصبح مصطلحا ناجزا.(3) والنجوز صفة للمصطلح الذي وصل إلى آخر مرحلة من مراحل تطوره، فيستقر مفهومه ويصبح متداولا عند أهل الاختصاص، بعد مروره بمراحل متسلسلة في وضعه.

4- دور الترجمة في تطوير المصطلح النقدي

كانت الترجمة من أهم طرق اتصال العرب بالفكر اليوناني، وكانت قد اتسعت مند أواخر القرن الثاني للهجرة، وازدادت اتساعا في القرنين الثالث والرابع، فانفتح المجتمع العربي على الثقافات الأخرى عن طريق الترجمة خلال الفترة الأموية، حيث نقلت الكثير من العلوم إلى العربية، وتُرجمت أهم الكتب في شتى العلوم، بعد انفتاح العرب في العصر العباسي على الآخر، فقد عرف عصر الخلفاء العباسيين منهم أبو جعفر المنصور(ت 158 ه) حركة كبيرة للترجمة من اليونانية إلى العربية لكتب الطب والفلك، كما كان الخليفة هارون الرشيد (ت 193 ه) شغوفا بالعلم والعلماء، فقد أنشأ لهم دار الحكمة في بغداد، وحرص على تزويدها بكتب التراث اليوناني، وكلف من يترجمها إلى العربية، وازداد اهتمام الخليفة المأمون (ت218 ه) بترجمة عيون الثقافات الأجنبية، وخصص لها أمهر المترجمين لنقلها إلى العربية، من بينهم: حنين بن إسحق وهو من أهم مترجمي التراث اليوناني، لأن العرب لم يتعاملوا مباشرة مع الموروث اليوناني، بل عن طريق ترجمات السريان، الذين كان لهم فضل ترجمته إلى اللغة العربية، ولعبت بيت الحكمة دورا هاما في مجال الاتصال الفكري بين اليونان والعرب، كما لعب الفلاسفة دورا كبيرا في ترجمة علوم اليونان وفلسفتها إلى العربية، وقد كانت ترجمة واعية خلاقة وليست حرفية للنصوص اليونانية، فما ترجمه ولخصه وشرحه الفلاسفة العرب مثل الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم، قدموه على حسب ما فهموا من المترجمين السريان، ويأتي الشعر على رأس القضايا التي اهتم بها هؤلاء، فاستطاعوا بذلك أن يفتحوا للنقد بابا جديدا أمده بنَفَس جديد، بعد أن بُذلت محاولات كثيرة لتعريفه وفهم طبيعته وجوهره، من خلال مفهوم المحاكاة كما جاءت عند أفلاطون وأرسطو، وبمفهوم التخييل كما جاء عند الفارابي، وابن سينا، في القرن الرابع الهجري الذي تم خلاله تَشُكل مفهوم الشعر المُتأثِر بالمناخ العقلاني الذي أشاعه الفلاسفة" ويتجاوز النقد مرحلة الحراك السطحي فيما سمي بخصومة

القدماء والمحدثين، وينتقل إلى المستوى الأرقى الذي تطرح فيه القضايا طرحا يتصل بالبحث عن مفهوم متكامل، ويحرص النقد في سبيل ذلك على الإفادة من كل تجارب الأمم الأخرى..."(4)، وهكذا جاء نقد القرن الرابع الهجري مستوعبا لثقافة الآخر بعد إقامة الصلة بين الشعر والفلسفة.

استمرت حالة النقد على هذه الوتيرة حتى بداية القرن الرابع، حيث ظهر عامل التأثر بالوافد الأجنبي، فاتجه النقد لمعالجة قضايا نقدية أساسية لها صلة مباشرة بالشعر كتعريفه، ودراسة شكل القصيدة العربية، والموازنة بين الشعراء...ثم ظهر في القرن الرابع التيار المتأثر بكتاب "فن الشعر" لأرسطوطاليس، وترجمات السّريان وشروح الفلاسفة العرب وتلخيصاتهم، حيث تعانق من خلالها الأدب مع الفلسفة، ومن ثم عرف النقد العربي مصطلحات مثل: المحاكاة، والتّخييل، والتّغيير، والمصطلحات المعَرَّبَة كالطراغوذيا، والقوموذيا التي تسربت إلى النقد العربي، بفضل جهود الفلاسفة العرب الذين سهلوا عبور الكثير من المصطلحات اليونانية إلى النقد العربي، فظهر نوع جديد من المصطلحات المتعلقة بالشعر إلى الساحة النقدية العربية، ويظهر هذا التأثر خاصة عند ابن طباطبا، وقدامة ابن جعفر.

5- المصطلح عند ابن طباطبا

يعتبر كتاب "عيار الشعر" (5) من الكتب المهمة في النقد الأدبي وفن الشعر، جمع فيه ابن طباطبا آراءه ليكون معيارا للشعراء في صناعتهم للشعر، وأتبع ذلك بالأمثلة التطبيقية التي توضح مذهبه، يقول في ذلك:" وكل ما أودعناه هذا الكتاب فأمثلة يقاس عليها أشكالها، وفيها مقنع لمن دق نظره، ولطف فهمه"(6) وهو كتاب موجه للشعراء الذين يحتاجون إلى مساعدة تعينهم على كتابة الشعر، وتقديم النصح والإرشاد للمبتدئين منهم، إذ حدد لهم طريقة بناء القصيدة الشعرية، و الأدوات المطلوبة لبنائها، وخلافا لكتب القرن الثالث للهجرة، زاوج مؤلفه بين الثقافة العربية والثقافة الفلسفية اليونانية إذ تنوعت عنده المرجعيات فمنها ما هو تراثي، ومنها ما هو ديني، ومنها ما هو فلسفي، وقد اجتمعت هذه المرجعيات في كتابه "عيار الشعر" الذي يغلب عليه الروح المنطقية الناتجة عن تأثره بأرسطو، ويأخذ تحكيم العقل حيزا هاما في تفكيره، كما يلعب دورا هاما في تذوقه للشعر

فكل "حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له...والفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق، والجائز المعروف المألوف... و يستوحش من الكلام الجائر، والخطأ الباطل، والمحال المجهول المنكر...فإذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوما، مصفى من كدر العي...قبله الفهم، وارتاح له وأنس به، وإذا ورد عليه على ضد هذه الصفة، وكان باطلا محالا مجهولا انسدت طرقه ونفاه، و استوحش عند حسه به...و علة كل حسن مقبول الاعتدال، كما أن علة كل قبيح منفي الاضطراب"(7) فكل حاسة تتواءم مع ما يشاكلها ويتصل بها، و المعوّل عليه هو الفهم الذي به يُدرَك الحَسن والجيد من الكلام، كما يُدرَك القبيح الذي لا رونق فيه، و يستخدم ابن طباطبا العقل والفهم والذوق نفس الاستعمال، فالشعر يرد على العقل والفهم الثاقب، والذوق المسترشد بهما، فيصدر في النهاية الحكم على الشعر بالجودة أو الرداءة.

استعمل ابن طباطبا مصطلحات ترتبط بالمصطلح الأساس وهو الشعر، الذي يعتبره بنية لغوية موسيقية، أكثر مما هو إبداع خيالي، وحدد ما يلزم الشاعر من أدوات لإحكام صنعته، كما تحدث عن المعاني والألفاظ وعن المشاكلة بينهما، ثم بَيَّن طريقة العرب في التشبيه، وكيف اختاروا من التشبيهات ما أدركه حسهم، وما ينبغي من ملاءمة معاني الشعر لمبانيه. لقد خصص ابن طباطبا كتابه للحديث عن أصول الصناعة الشعرية، ويعكس هذا وعيه المعرفي الكبير الذي هداه لاستعمال هذه المصطلحات بشكل يعبر عن فكره النقدي، و سعى إلى تطويرها في ضوء ما شاع من معارف فلسفية في عصره خاصة ما يتصل بالشعر، والكتاب محاولة لوضع مجموعة من المعايير، من أجل الحفاظ على الشعر الذي بدأت تظهر فيه علامات التَغَيُّر، على مستوى ألفاظه ومعانيه، مما دفع ابن طباطبا لوضع عيار لقياسه، وأهم عيار وضعه هو الفهم الثاقب، ذلك أنَّ النص الشعري يتوجه أكثر من أي جنس آخر إلى المتلقي الحاذق ذي الفهم الثاقب؛ وتأثيره في المتلقي تأثير عقلي لأنَّ عيار الشعر كما يرى ابن طباطبا" أن يورد على الفهم الثاقب فما قبله واصطفاه فهو واف، وما مَجَّه ونفاه فهو ناقص" (8) كما نظر إلى الصورة الشعرية بمعزل عن علاقتها بخيال الشاعر، وربطها بقواعد العقل الثاقب.

6- المصطلح عند قدامة بن جعفر

غاب المصطلح النقدي المتخصص في كتب النقد القديم، هذا ما تبينه مصادر النقد القديم ككتاب الفحولة للأصمعي، أو طبقات فحول الشعراء لابن سلام، أو الشعر والشعراء لابن قتيبة، أو البيان والتبيين للجاحظ، قواعد الشعر لثعلب، التي تكشف عن غياب المفاهيم الاصطلاحية في مراحل النقد الأولى، فقد جاء استعمالهم للألفاظ بمفاهيم لغوية أكثر مما هي اصطلاحية ثابتة الدلالة، إلى أن ظهر كتاب "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر الذي سعي من خلاله لتنظيم البحث في النقد، حيث أرسى بعض القواعد الخاصة بالشعر بعد أن " لاحظ أن النقد اتجه إلى اللغة يزنها بميزان الخطأ والصواب وإلى المعاني يقومها على نحو جزئي... وصار عند هؤلاء الحكم على اللفظة أو العبارة أو المعنى حكما على الشعر، وليس ذلك بشيء، فالنقد عند قدامة تمييز الجيد من الرديء، ومعرفة هذا يحتاج إلى علم دقيق بطبيعة الشعر أولا، وقد رأى الناس يخبطون فيه..." (9) ويعتبر كتابه دراسة نظرية للشعر بمنهج يختلف به عن سابقيه، كما أنه يظهر فيه تأثره الواضح بأفكار أرسطو في الشعر" ومن المعتقد أن لثقافة قدامة الفلسفية والمنطقية أثرا واضحا في نظرته الشاملة إلى الشعر بصفة علما أو صناعة، وقد أبعدته هذه النظرة الشاملة عن النزعة التجزيئية الذوقية التي ميزت بعض الاتجاهات النقدية السابقة عليه"(10) لقد تمكن بفضل هذه الثقافة من دراسة القواعد التي يبنى عليها النقد وجعلته يتحرر من الولاء للقديم ويتعامل معه بروح فلسفية، حتى وصف الكتاب بأنه "لا يعدو في الحقيقة كونه محاولة منهجية لتطبيق معطيات الفكر المنطقي على الشعر العربي" (11) ورغم أننا نجد مصطلح "النقد" في عنوان الكتاب "... إلا أن علماء البلاغة يجعلونه ضمن كتب البلاغة وهذا ما يدل على امتزاج النقد بالبلاغة في الكثير من المؤلفات العربية فقد جاء المصطلح النقدي متداخلا مع المصطلح البلاغي، لدرجة أنه يصعب التفريق بينهما، "وقد استطاع قدامة أن يستخرج كثيرا من فنون البلاغة وهو يبحث في أسباب جودة الشعر ورداءته"(12) واستخدم قدامة في ذلك "...عددا وفيرا من الاصطلاحات العلمية كفلتها له ثقافته الواسعة المتنوعة " (13)

ويظهر تأثر قدامة بالفكر اليوناني في تنظيمه لكتابه "نقد الشعر" بدءاً من أوّل الكتاب إذ اتبع في الفصل الأول في تعريفه الشعر، طريقة الفلاسفة المناطقة، ثم إنه يستمد تعريفاته لبعض فنون البلاغة من تعريفات أرسطو وذلك بواسطة ترجمات كتبه،

كما أن تأليف كتابه هو بناء هيكل منطقي، طوره قدامة بعقله غير ناظر إلى حقائق الشعر ولا متقيد بها. وقد أوتي من القدرة فيه على الترتيب والتحديد ورسم منهج متكامل ساعده عليه اشتغاله بالمنطق والحساب"(14) فقد عرّف الشعر بأنّه قول موزون مقفى يدل على معنى، وبين طريقته في صوغه هذا التعريف بمثال آخر وهو تعريف الإنسان بأنه حيّ ناطق ميّت، كما اعتبر الشعر صناعة كباقي الصناعات، ويظهر كذلك في تحديده لأسباب الجودة والرداءة في الشعر، فيذكر عناصره الأربعة، اللفظ والوزن والقافية والمعنى، ثم يذكر ائتلاف هذه العناصر الذي ينتج عنه، أربعة ائتلافات هي: ائتلاف اللفظ مع المعنى، وائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن، وائتلاف المعنى مع القافية.

كما يظهر كذلك تأثره في كلامه عن الغلو في المعاني، الذي يجيزه للشعراء في جميع الأحوال وللخطباء في أحوال خاصة، وصحة التقسيم وصحة المقابلات وصحة التفسير، كما تأثر بنظرية الوسط في الفضائل، فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور والكرم وسط بين الإفراط والبخل، وجعل بقية الفضائل فروعا من الفضائل النفسية، كما رد فنون الشعر كلها إلى المدح والهجاء ليخضعها كلها إلى نظرية أرسطو، كما يبدو أثر أرسطو واضحا في كلامه عن الصفات النفسية التي جعلها أساس الفضائل، فالمدح لا يكون إلا بها، والهجاء يكون بسلبها، مما يكشف اطلاع قدامة على الإنجازات اليونانية السابقة، ليقيم مشروعا أصيلا يراعي خصوصية الشعر العربي. لقد كان "نقد الشعر"بداية مرحلة مختلفة عما سبق في النقد، تجاوز فيه قدامة عتبة السائد في عصره، بطرحه المختلف والجديد لمفهوم الشعر، متأثرا في ذلك بالمفاهيم الأرسطية المبنية على العقل والمنطق، ولا ريب في أن الثقافة اليونانية كانت من أبرز المؤثرات في فكر قدامة النقدي، لذلك سعى إلى وضع علم خاص بالشعر يميّز به الناس جيدَ الشعر من رديئه، وسماه "علم جيّد الشعر من رديئه" ويقصد به النقد، فأصبحت عنده الحاجة إلى اختراع المصطلح ضرورة يقتضيها هذا العلم الجديد، و قام بوضع مصطلحات هامة في نقد الشعر والبلاغة، و"يعمد إلى شرح هذه المصطلحات انطلاقا من مذهبه الفلسفي الذي يعنى بتعريف الحدود" (15) ولكن لا يعني هذا خروجه على الثقافة العربية، بل كان لتحديد مفاهيم مصطلحاتها و تقسيم أبوابها أثر واضح فهو "لم يخرج عنهم كثيرا وإن خالفهم في

المنهج العقلي بل اتبع خطى العرب الأقدمين في الكثير من آرائه و مقاييسه النقدية وأشاد بتقاليد الشعر ووجوب رعايتها"(16) كما ابتدع الكثير من المصطلحات النقدية والبلاغية وقد أشار قدامة إلى هذا عندما قال: "فإني لما كنت آخذا في استنباط معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدلّ عليها احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماءً اخترعتها، وقد فعلت ذلك، والأسماء لا منازع فيها إذ كانت علامات، فإن قنع بما وضعته وإلاّ فليخترع لها كل من أبى ما وضعته منها ما أحبّ. فليس يُنازع في ذلك "(17) ومن المصطلحات التي يظهر فيها تأثر قدامة بالمنطق الأرسطي، مصطلح الشعر الذي ترك الحديث عن جوانبه الفنية والجمالية، وراح يقيسه بطريق العقل وقياسه بمقياس المنطق و الخطأ والصواب.

خاتمة

إن ما ميّز النقد في القرن الرابع أنه لم يعد بعيدا عن التأثيرات الفلسفية والفكرية اليونانية، حيث أصبح أثر الفلسفة والمنطق واضحا في مؤلفات نقاد القرن الرابع الهجري، فكان ذلك سببا إلى الاتجاه بالنقد إلى البحث عن العلل ووسائل القياس بعد أن كان قبل ذلك يقوم على الفطرة العربية الخالصة. وقد أدى ذلك إلى ظهور مصطلح نقدي يقوم على المقاييس العقلية، تجلى ذلك بوضوح في كتابي ابن طباطبا "عيار الشعر" وقدامة "نقد الشعر" وما جاء فيهما من مصطلحات نقدية ظهرت بطابع مختلف، كشف عن مرجعية أجنبية كانت وراء إنتاجها، فقد استفاد النقد العربي من التراث النقدي الإغريقي، بعد عملية إعادة إنتاجه بما يوافق التصور العربي الإسلامي، مما أنتج مصطلحات نقدية بحمولة ثقافية جديدة، صيغت بحرص شديد لتعكس ثقافة عربية بيانية، بعد تكييفه وطبيعة الشعر العربي الغنائي، فاستطاعوا أن يصنعوا مصطلحا عربيا لهذه المفاهيم الجديدة، بما يتماشى وطبيعة أدبهم.

هوامش المقال

[1] - أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ص 68.

[2] - مصطفى ناصف، النقد العربي نحو نظرية ثانية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت،(دط) 2000، ص10.

[3] - نجز الشيء: تمّ وقُضي ونجز وعده: قضاه وأنهاه وأتمّه، وعمل ناجز: عمل تام كامل. انظر ابن منظور، لسان العرب: (نجز)

[4] - الكواز محمد كريم، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، ط1، 2006، ص 350.

[5] - يقول جابر عصفور عن هذا الكتاب بأنه "معني بتحديد أصول الفن الشعري مما يجعله يلتقي مع كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر، ومنهاج البلغاء لحازم القرطاجني، وذلك لأن هذه الكتب الثلاثة تشتغل بقضية تأصيل الفن الشعري في ذاته وتحاول أن تقدم تصورات نقدية متماسكة تحدد ماهية الفن الشعري" انظر مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، عصفور جابر أحمد، ص 15.

[6] - ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، دار العلوم للطباعة والنشر الرياض المملكة العربية السعودية 1985، ص 85.

[7] - ابن طباطبا، المصدر نفسه، ص 20 ،21.

[8] - ابن طباطبا، المصدر نفسه، ص 19 .

[9] - الصفار ابتسام مرهون، حلاوي ناصر، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، جهينة للنشر والتوزيع عمان،(د ط)2013، ص 291.

10- الصفار ابتسام مرهون، حلاوي ناصر، المرجع السابق، ص 289.

11- الناقوري إدريس، المصطلح النقدي في نقد الشعر "دراسة لغوية، تاريخية نقدية"، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ليبيا، ط 2، 1984، ص13.

12- الكواز كريم، البلاغة والنقد المصطلح النشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، ط1، 2006، ص235.

13- الناقوري إدريس، المرجع نفسه، ص13.

14- سلام محمد زغلول، تاريخ النقد الأدبي والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف الأسكندرية،(د ت)(د ط)، ص 216.

15- كبابة وحيد، قراءة النص النقدي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، صائغ، ط 1، 2012، ص 123.

16- مطلوب أحمد، اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع للهجرة، وكالة المطبوعات الكويت، ط 1، 1983، ص 65.

17- قدامة بن جعفر، المصدر نفسه، ص68.